خطبة الكتاب

اللهم أنت ولى الحمد، فلك الحمد الذى لا يجب إلا لك، ولا يليق إلا بك، حمداً يديم لأهل الإيمان أفاويق[1] النعماء وينيم عنهم أهاويل[2] البلاء فإنا لا نحصى ثناءً عليك أنت - سبحانك - كما أثنيت على نفسك.

اللهم وإليك الضراعة أن تصلى وتسلم على سيدنا ومولانا محمد إمام المتقين وخاتم النبيين وفيض رحمتك للعالمين، صلى الله عليه وآله وأصحابه وعلى جميع إخوته من الأنبياء والمرسلين.

ثم أما بعد، فهذا كتاب الصيد كان قد دعانا إلى تأليفه ما نعلمه ويعلمه الناس معنا من عناية أمتنا العربية المجيدة بالصيد عنايةً جعلتهم موضع الإعجاب بهم فى العالمين.

ولقد أذكر أننى كنت فى مجلس عربى كريم مشغوف بالصيد أشد الشغف، حريص عليه أبلغ الحرص، معتز به أكرم الاعتزاز.

وقد كانت تستبد بالمجلس الكريم أحاديث الصيد يطوّف بها المتحدثون فى مختلف آفاق الحضارة العربية التى عُنيت بالصيد أبلغ العناية، فى وسائله، ومناقبه، وأحكامه التى جاءت فى كتاب الله وسنة رسوله، ويتبع ذلك كلّه

---

(١) أفاويق مقادير لبن لدى يجتمع فى ضرع الناقة بين الحلبتين أو بين الرضعتين. والمراد أن يتصل الله على عباده المؤمنين بالنعمة عليهم كامله غير مقوصة.

(٢) الأهاويل المفزعات من شدائد الدهر ومحن الحياة. وهذه الصيغة هى صيغة منتهى الجموع.

طرائفه التى لا تخلو من ملحةٍ نادرةٍ وعظة بالغة، فى حكمة مسلمة أو مثل سائر.

ومع أننى لم أكن أعرف من شئون الصيد شيئاً إلا ما يتصل بصيد السمك فى النيل إبّان الفيضان؛ وجدت فى نفسى رغبةً شديدة فى أن أكتب للناس كتاباً عن الصيد ينتفعون به فى شئون الدنيا وشئون الدين.

ولست أكتمك - حفظك الله - أن رغبتى فى إخراج كتابٍ على هذا النحو، كان يظاهرها حرصى الشديد على اجتناب أحاديث السياسة ومجالسها التى كانت تستبد فى أوائل الستينيّات بالناس أشد استبداد، فلا يكاد يخلو مجلس فى بيت أو نادٍ من حديث عن قضية سياسية نابعة من داخل الشعب أو وافدة عليه من الخارج، ولم تكن هذه المجالس - على كثرتها - تخلو من دوى نفوس يطيبُ لهم أن ينقلوا أحاديث المجالس أمينة حينًا وغير أمينة أحياناً، فإذا البلاء بذلك فادح والخطب جسيم، وإذا الحاضرون فى هذه المجالس مأخوذون أخذ مقتدر غير عزيز سواءٌ فى ذلك المتكلمون والمستمعون.

وهنا تسنح الفرصة لرواية حديث نبوى شريف يرويه الثقات عن عبد الله بن مسعود، وفيه يقول رسول الله - صلوات الله عليه -: «اتقوا الهَرْج». قال ابن مسعود: وما الهَرْج يا رسول الله؟ قال: «حين لا يأمن المرءُ جليسه». قال ابن مسعود: فيما تأمرنى إن أدركت ذلك يا رسول الله؟ قال: «كُف نفسَك ويدَك وادخل دارك[1]». قال ابن مسعود: فإن لم تَسَعْنى دارى؟ قال: «أُدخل بيتك» قال ابن مسعود: فإن دُخل علىّ بيتى؟ قال:

---

(١) البيت من الدار موضع البيات خاصة بخلاف الدار فإنها أعم وأشمل.

«ادخل مسجدك وقل ربِّيَ الله حتى تموت».

كان هذا الحديث الشريف، ملء نفسى وأنا أتهيأ لتأليف هذا الكتاب عن الصيد، إذا كان الحديث عن الصيد بعيدًا عن السياسة وعن كل ما يتصل بها من قريب أو بعيد.

وليس يخفى على بصير بشئون أمتنا العربية، أنها لَهجة بالصيد راغبة فيه محتاجة إلى أحكام الله تعالى فى حِلِّ الصيد أو حرمته، فقد تعرض كتاب الله الكريم له فى غير آية تحتاج إلى مزيد من الإيضاح، خاصةً ما يتعلق من ذلك بطعام أهل الكتاب، من حيث ذكر اسم الله تعالى على الصيد أو على الطعام أو عدم ذكره.

فبهذين الأمرين: الرغبة فى اتقاء الهرج الذى أشار إليه حديث ابن مسعود، والحرص على نفع الذين يطيب لهم أن يستزيدوا من المعرفة؛ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض أن يمهد لى الأسباب، وأن يعصمنى من الزلل فى محاولتى تأليف هذا الكتاب.

والله تعالى المسئول أن يستجيب الدعاء ويمنح التوفيق، فإنه المأمول لكل خير، بيده الأمر وإليه المصير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

مقدمة الكتاب

مما هو فى يقين العقائد ووضوح البديهات، أن الإسلام حضارة تستصحب روح الدين فى أمور الدنيا وأمور الآخرة جميعاً. وربما زادك أنسًا بهذه القضية ما أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه حيث قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول:

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)[1]... الآية، ثم قال: «ألا إن القوة الرمى. ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى»، ثم قال - صلى الله عليه وسلم: «ألا إن الله تعالى سيفتح لكم الأرض وستكفون المئونة فلا يعجزن أحدكم أن يلهو بأسهمه».

ففى هذا الحديث إشارة إلى أن الإسلام حضارة أكثر مما هو دين. ذلك أن الدين فى بادئ الرأى يغضُّ من اللهو ويحضُ على الجد الخالص، فإذ قد انتظم الحديث كلمة اللهو ففى ذلك ما يدلُّ على أن الإسلام حضارة ودين، كما فى حديث آخر يتضح به معنى هذا الحديث، وفيه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل لهو باطل، ليس من اللهو محمودٌ إلاثلاث: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته أهله ورميه بقوسه ونبله فإنهن من الحق، ومن ترك الرمى بعد ما علمه. رغبةً عنه فإنها نعمة كفرها».

ولست تنكر - حفظك الله - أن يكون بعض اللهو مطلوبًا لمعنى من

---

(١) لآية ٦٠ من سورة الأنفال.

المعانى التى تتغياها للإنسانية حضارة الإسلام، وإذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرشد إلى الرمى بالقوس والنبل لهوًا مباحًا فإن مما يوضح حكمة الحديث الشريف فيه ما يرويه الثقات عن أمير المؤمنين عمر فى قولته الشريفة: «لن تخور قواكم ما نزوتم ونزعتم». ذلك أن الفعل نزا، يعطى معنى الوثب إلى أعلى. والفتوة العربية تدعو الفارس أن يثب إلى أعلى ليركب فرسه، وتلك آية القوة التى يستمتع بها الفارس مادام يتعامل مع فرسه على هذه الصورة من الوثوب، ذلك هو المراد من النزو فى كلمة عمر.

وأما النزع، فإن المراد به مد وتر القوس بالسهم لكى يطلق إلى غرضه على غاية القوة، وإذا اجتمع للإنسان السَّوِىِّ هذان الأمران. الوثب على الفرس حين الركوب، والنزع فى القوس عند الصيد - فقد اجتمعت له قوة جسده دون أن تضعف أو تخور.

وليس يرتاب الذين يعلمون فى أن الصيد باب من أبواب اللهو المباح عظيم. وإنْ كان الصيد فى المجتمعات القديمة سبيلًا إلى الغذاء الذى ترتبط إليه الحياة الاقتصادية أشدّ ارتباط، فإنه كما قرر رسول الله فى الحديث الشريف ليس أصلًا فى البناء "" تصادى للأمة العربية التى أخرجها الإسلام من حياة الضنك والشظف إلى حياة السعة والترف. فلم تعد بالعرب حاجة بعد أن أكرمهم الله بالإسلام إلى الصيد يأكلون منه ويتغذون به ويقيمون حياتهم الاقتصادية عليه، ولهذا حذرهم رسول الله من الاستئناسة إلى يسر الحياة ورخاء العيش، وأمرهم أن يتخذوا من الصيد وسيلة لهو ولعب.

على أنك - رحمك الله - واجد فى الصيد معانى كثيرة تنأى بك فى باب الصيد عن اللهو الخالص إلى التدبر فى خلق الله ومعرفة منزلتك من الله الذى جعلك خليفةً فى الأرض وأعطاك من العقل وحسن التصرف ما يجعلك

سيدًا فى كون الله العظيم الذى له فى كل لطيف من قدرته معجزٌ يتفكر فيه المتفكر، وله سبحانه فى كل دقيق من صنعته، خفىٌّ يتنبه له المتدبر، فهو ولى النعم التى تقتضى مواصلة حمده وواهبُ المنن التى تحثُّ على متابعة شكره.

وقد ميزّ - تعالى - كل نوع من حيوان خلقه، على حدته، وأبانهُ بشكله وصورته، وجعل له من الآلة ما يلائم طبعه وتركيبه، ويسَّرهُ للأمر الذى يؤديه إلى مصلحته وقوام جسده.

فله الحمد سبحانه، إذ جعلنا من أشرف ذلك كلِّه نوعًا، وأتمه معرفة، وجمع فينا بالقوة ما فرقه فى تلك الأصناف من الخلق بالآلة فليس منها شىء مخصوص بحالٍ إلاّ ونحن قادرون على مثلها، فإنا - بفضل حيلة العقل - نستعمل مثل ذلك إذا احتجنا إليه، ونفارقه إذا استغنينا عنه، وكذلك ذوات الشوكة والحد من صرف ومخلب، فإن لنا مكان ذلك ما نستعمله من السيوف والرماح وسائر الأسلحة. وكذلك ذوات الحافر والخُف والظلف، فإن لنا أمثال ذلك مما ننتعله ونتقى أذى الأرض به.

وله الحمد سبحانه على أن جعل لنا من تلك المخلوقات حذمًا وأعوانًا، وزينةً وجمالاً، وأكلا وأقواتًا فبعضها نمتطيه، وبعضها نقتنيه، وبعضها نغتذيه.

وله سبحانه الحمد على أن أحل لنا صيد البر والبحر والهواء، نقتض الوحوش من كناسها[1]، ونحطها من معاقلها، ونستنزل الطير من الهواء، ونستخرج الحوت[2] من الماء، ثم لم يكلنا فى ذلك إلى مبلغ حيلتنا حتى عضَدَنَا عليه وسهل لنا السبيل إليه، إذ خلق لنا من تلك الأنواع أشخاصًا أغراها بغيرها من سائر أجناسها، ووصلها من آلة الخلقة وسلاح البنية

(١) الكِناس - بكسر أوله - مَوْلجُ فى الشجر يأوى إليه الظبى ليستتر.

(٢) الحوت فى لغة العرب: السمك على أنواعه.

بقبول التضرية والتأديب والانطباع على الإلف والاستجابة، فدلنا على موضع الصنع فيها وموقع الانتفاع بها، كالفهد والكلب وسائر الضوارى، وكالبازى والشاهين والصقر وسائر الجوارح، فكلٌ من ذلك لنا كاسب، وعلينا كادح، ومصلحتنا عائد، نستوزعه[1] جل جلاله، الشكر على ما منحنا من هذه الموهبة، وفضلنا به من تلك التكرمة، كما نستوزعه الشكر على جليل نعمائه وجزيل عطائه مما نعجز عن تعداده ونعجز عن الإحاطة به، من عوائد كرمه، وفوائد قِسَمه ونرغبُ إليه جل جلالهُ فى العوق على طاعته ومقابلة إحسانه باستحقاقه، فإنه الموهوب للرغائب، لا يُكافى الحمد منّنه ولا يوافى مزيده وصلى الله وسلم على النبى الصادق الأمين محمد وعلى اله وأصحابه الطيبين الطاهرين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

ومن الحق الذى لا مندوحة عن قضائه أن أنعتك - رحمك الله - إلى أن هذه الكلمات فى هذه المقدمة، هى مفتتح كتاب جليل فى أسلوبه وموضوعه، كتبه - بعنوان «البيزرة» - مصرىٌ عاش فى ظل الخليفة العزيز بالله «نزار الفاطمى» ملك مصر، وقد استوزر كاتب الكتاب لملك مصر هذا ثمانية عشر شهرًا، فأصبح يعرف من شئون الصيد والاته ووسائله ما يخفى على كثير.

وقد كان الرجل - على علمه وفضله - يدين بتقبيل الأرض بين يدى العزيز بالله نزار، على ما جرت سنة الفاطميين ومن بعدهم من الملوك.

ومع أنى أمقت أشد المقت هذا اللون وما يشبهه من التحايا التى لا تليق بالعبد إلا بين يدى ربه؛ آثرت هذه الكلمات من كتابه «البيزره» مفتتحًا لكتابنا هذا «فى عالم الصيد» لأنها أجملت كل ما احتواه من تفضيل.

والبيزرة - عند أهل الصناعة - هى العلم بأحوال الجوارح من حيث

(١) نستوزعه شكره: أن يهب له القدرة على شكره.

صحتها ومرضها، ومعرفة العلائم الدالة على قوتها فى الصيد وضعفها فيه، وهى فرع من البيطرة التى هى طب الحيوان.

فالعلم بأحوال الإنسان صحة ومرضًا وقوة وضعفًا، عنوانه الطب. والعلم بأحوال الحيوان صحة ومرضًا وقوة وضعفًا، عنوانه البيطرة. والعلم بأحوال الجوارح من الطير صحة ومرضًا وقوة وضعفًا، عنوانه البيزرة.

وهذه الكلمة «بيزرة» جاءت من بيزار الفارسية، وعربت بإزيار أى صاحب الباز، أو من بزدار، بمعنى القائم على الباز أو مالكه، وقد أطلقوا البيزرة على علم حياة الباز وتربيته، ثم توسعوا فى مدلوله وأطلقوه على علم حياة الجوارح.

ولعل كلمة البازيار شاع استعمالها لشدة اختلاط العرب بالعجم، وبدأ هذا فى أوائل المئة الثانية من الهجرة. وكان البازيار فى الدولة الأموية يدعى (صاحب الصيد)، فكان يقال لغطريف بن قدامه العسّانى بازيار الخليفة هشام ابن عبد الملك (صاحب الصيد).

ولم يستعمل العرب كلمة بَيّاز العربية، مثل صقّار وكلّاب وفهّاد وفيّال وعَقاب – لصاحب الصقر والكلب والفهد والفيل والعُقاب.

ولا يستلزم استعمال العرب اللفظ الفارسى فى أول عهدهم بالحضارة أن يكون منشأ هذا العلم بلاد فارس. فالعرب قد يعمدون إلى استعمال اللفظ الفارسى أو اليونانى أو النبطى أو السِّندى. وفى لغتهم ما يقابله من الفصيح، لأنهم ربما رأوا أن اللفظ الأعجمى ينطوى على معنى دقيق لا تؤديه اللفظة العربية، أو يكون اللفظ من الألفاظ الشائعة بين العامة والخاصة. والعادة

جارية بألّا يترك الشائع إلى غيره مما لم يشع[١].

وقد كان بطليموس التالى للأسكندر أول من اقتنى البُراة ولعب بها وضرّاها، ثم لعب بعده ملوك الأمم من اليونان والرومان والعرب والعجم، وقالوا: إنه كان فى جيش تيمورلنك عشرون ألف بيّاز.

وربما كانت نشأة هذا العلم فى الهند، وقد رجحوا أنه علم قديم لا يُعرف أول من وضع أساسه، وانتشر فى العرب بعد الحروب الصليبية، فكان البيازرة يُعدُّون من أوضاع الدولة، كما يُعَدُّ القائمون على تربية الخيل والبغال والجمال والفيلة.

ولقد انصرفت همم العرب إلى معاناة البيزرة سأنهم فى معظم ما شغفوا به من العلوم والفنون.

ومن طبيعة أهل الوبر التعويل على الصيد فى تغذيتهم، فتقاضاهم ذلك أن يتدربوا عليه ويتخذوا الأسباب لإتقان صناعته. والصيد كالحرب يحتاج إلى ذكاء وفرط حيله.

حتى إذا تحضرت العرب سارت على طريقة قدماء أهل البادية، ولكن بقواعد ونظم، متمثلين - على ما يظهر - ما عند الأمم الأخرى من أصوله.

وإذا شهدنا العرب يعانون الصيد فى عامة عصورهم، فذلك لأنه ضرب من ضروب الرزق. ومتعة من متع النفس، ولون من ألوان الحرب أيام السلم، وهم - ما انفكوا منذ أقدم عصور جاهليتهم - يألفون الغزوات والغارات.

ولما استبحرت حضارتهم فى الشام والعراق ومصر وغيرها، كان من

---

(١) عن الأستاذ العلامة محمد كرد على

الطبيعى أن يدوّنوا أصول الصيد، وكان علماء اللغة قد سبقوا ودونوا أسماء الطيور والجوارح، مع ما دونوه من أصناف الحيوان فى جزيرة العرب، دون النظر إلى تربيتها وطبها وحسن الإنتفاع بها، ثم أخذوا ينظرون فى ذلك نظرًا علميًّا وعمليًّا معًا.

ولم يُعرف أحد من العرب قبل الجاحظ كتب فى الحيوان كتابة قامت على البحث والدرس، وتجلى فيها كتبه فى هذا الشأن جهده وتجاربه، وكان على صواب فى مناقشة من سبقوه من الأمم فى علم الحيوان كأرسطو، إذ كان رائده فيما كتب المنطق السليم المبنى على المعاينة[1]، رحمه الله.

(١) كذلك ذكر المؤرخ الحجة والعالم الجليل الأستاذ محمد كرد على رحمه الله.